صورة الذات المفتخرة
الشاعر ابن النقيب الحسيني (ت ١٠٨١هـ) مثالاً

الكلمة المفتاح: الصورة، الذات، المفتخرة

بحث مستل من (رسالة ماجستير)

رؤى حسين أحمد عبدول
جامعة ديالى /كلية التربية للعلوم الانسانية
ar.hum@uodiyala.edu.iq

أ. د. لؤي صيهود التميمي
جامعة ديالى /كلية التربية للعلوم الانسانية
luay.ar.hum@uodiyala.edu.iq

الملخص

إنّ هذا البحث يحاول الوقوف على صورة الذات المفتخرة في شعر ابن النقيب الحسيني من خلال تتبع نصوصه والوقوف على البواعث النفسية التي كانت مدعاة لفخره منها شرف النسب، ونبوغه الشعري ، وتميزه، وحكمته والتي كانت بمثابة رسائل تفوق يبثها الى الآخر تنم عن ذات مضخمة لديه.

المقدمة

تُعد صورة الذات الموجه الرئيس لسلوك الافراد، سواء كان ذلك إيجابياً أم سلبياً والذي يساهم في توافق الفرد مع نفسه ومع ما يحيط به، فالفرد ــ بصورة عامة ــ يحاول أنْ يصنع صورة لذاته تتّصف بما يمتلكه من جوانب تميّزه عن أقرانه، وهذا بدوره يترك أثراً واضحاً في نظرته لنفسه، ولو نظرنا الى طبيعة التجربة الشعرية لتحقّق لنا أنّها ــ على اختلاف وجوهها ــ تعبير عن تنازع الوجود وتحقيق الذات، فالشعر تعبير عن واقع الشاعر منتصراً، أو مخذولاً، أو مفتخراً، محباً أو حزيناً...، وغيرها من أحوال تتولّد كنتائج حتمية مبرمة في النفس.

الذات المُفتَخِرَة:

إنّ الإنسانَ بِفطرتِهِ السويّة نَزوعٌ إلى العُلا، ميّالٌ إلى التعالي والتباهي، مُتطلِّعٌ إلى الرفعةِ والكمال، شديدُ التولُّعِ والتغنّي بِما في نفسِهِ من حسناتٍ، يتطلّع بِشِدّة إلى مآثِرِ الآباءِ والأجداد، وهو في تطلّعِه يبحث عن النموذجِ المُتكامِل والصورةِ المُثلَى[١] ، كذلكَ فهو مُحِبٌ لِذاتِه، يعملُ جاهدًا بأنْ يُضفِي عليها كلَّ ما يليقُ بِها من صفاتِ التميّزِ والتفرّد، ويؤطّرُها به؛ إذ يشعُر

بالراحة تجاه مدحِ الآخرينَ له، وفي حديثِهِ عن نفسهِ يخصّها بِما يُعلي من شأنِها، ويتجاوزُ أخطائها، ويُحسِّن من سيرَتِها، فإذا ما جاءَ إلى الشعرِ فإنّهُ يلجأ إلى الفخرِ.[٢]

الفخر بالحسب والنسب:

افتخرَ الشُعراءُ بأحسابِهِم وأنسابِهم منذُ القِدم، وكانَ أفضلُ ما يفتخِرونَ بهِ هو النسبُ الشريفُ الذي يرقى إلى رجالاتِ العربِ الذينَ عُرِفُوا بالفضلِ والإحسانِ والشجاعة، وإذا ما اتّصلَ بهذا النسب الشريفِ فضلَ العلمِ والرياسةِ، ويكونُ هذا داعيًا إلى أن يفتخر الشاعرُ بكلِّ ميزةٍ يتمنّاها أيُّ إنسانٍ[٣] ، فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُقلّلَ من شأنِ هذا المُفتَخِر؛ بسبَبِ ما أُوتِيَ من سماتٍ قد لا تجتمعُ عند أكثرِ الناسِ، ومثلُ هذه الفضائلِ توفّرت في نسبِ شاعِرِنا الحُسينيّ، فكان حريّا أن يفتخرَ بِها.

اتّسم آلُ النقيبِ بالأفعالِ الحميدةِ التي أوصلتهُم إلى المجد، وكانت بمنزلةِ السلّم الذي يرتقي بهِ إلى المجد، حيث وجدَ الشاعرُ قاعدةً مهمّة يتكئ عليها؛ إذ كانت أسرتُهُ مغرمةٌ بالفضلِ والإحسان، بين عُلماءَ وفُقهاءَ وشُعراءَ، فهذا البيتُ بيتُ فضيلةٍ، وشانٍ عالٍ، ومنزلةٍ رفيعةٍ، وهذا الأمر ساعد على تقدّمه بين أقرانه.

قال مُخاطبًا بها أحدَ أبناءَ عمّهِ بمكّةَ، قد وردَ دِمشقَ بائسًا من نكبةٍ صارت عليهِ في مفازةٍ من مفاوزِ مكّة المُشرّفة من قومٍ يُدعَونَ بالمفارجة، سنة سبعين وألف:

سِـــوايَ استمالَتْهُ الظِّبـاءُ الأوانِسُ[٤] وغَيْرِي لهُ في غَيْرِ مجـــدٍ تَنافسُ

سقَا الودقُ مِنْ أبناءِ هَاشِمَ نبعــةً نَمَتْنَا إلـى العَليَـا مِنْهَـــا مَغَـارِسُ

فَلَمْ نتّخِـذْ غــيرَ السِّماكِ مُنادِمـًا ومَــا رَاقَنَــا غَــيرَ الثُريّا مُجــالِسُ

وَلَمْ تُصْبِنَا الأقمارُ وهُنَّ كَوامِـــلُ وَلَمْ تُصِمْنَا الألحاظُ وهــيَ نواعِسُ

وَلَم يَفِ مِنّا غيــرُ شهــمٍ غشَمْشَمٍ[٥] يَفوقُ على الجوزَاءِ حيـنَ يُقايَسُ.[٦]

فبَنــي حمـزة كلّهـم أسـيادٌ، كـابرًا عـن كـابرٍ، وسـيدٌ عـن سـيّدٍ، فهـذه السلسـة جعلـت مـن حقّه أن يفخرَ بحسبهِ نسبهِ وآبائه وأجداده.

نلاحــظ أنّــه ابتــدأ القصــيدة بــالفخر الفــرديّ (سِــواي)، ثــمّ انتقــل بعــدها إلــى الفخــر (القَبلــيّ)، ثــمّ ســرعان مــا انــدفع الشــاعرُ مــع قومــهِ مُســتخدمًا لغــة الــ (نحــن)، فيــرى فــيهم مـن الرفعـة والمجـد، حيـث مجالِسُـهم ونـدمائهم هـم النجـوم والثُريّـا، كنايـة عـن المنزلـة التـي

يحظون بها (ولم تُصمنا ولم تُصبنا)، إذ وظّف الجناس لتلوين الخِطاب، وزخرفةِ اللفظ.

فالأصلُ والنسبُ العريق هذا أفضلُ شيءٍ يفتخرُ به العربيّ على مرِّ العُصور، فكانَ لنَسَبِ شاعِرنا دورٌ كبيرٌ في تحفيزِ ذاتِهِ وشاعريّته المتميّزة في دوحةِ الشعر.

نلحظ في فخرِهِ تلكَ القيم الراسخة في ذاته التي يعتزّ بها، ويؤمن بأهمّية الحفاظِ عليها، كما يُحاول أن يُظهر الميزات التي هيَ بمثابةِ رسائلَ تفَوّقَ ببعثِها بشكلٍ مباشرٍ إلى الآخر، يعمدُ خلالها إلى تضخيم أفعال الذات المنصهرة مع ذات الجماعة التي ينتمي إليها؛ بناءً على رابطةِ النسبِ، فكما انّ الذات ((تتصوّرُ في مجرى العلاقاتِ التي تنعقدُ لها مع التأريخ والمكان والأشياء، فإنّها تتصوّر أيضًا في علاقتها مع الآخر، ذلك الذي تمتُّ إليه بالنسب، وتنشئُ له الشعرَ، وتشركهُ ظرفَ الوجود)). [٧]

ثمّ يقول:

تَهُونُ عَلينَا النَائِباتُ شَهامَةً وتَفْتُرُ حيثُ الجوُّ أغبرُ عابِسُ

فَلا نعتِبُ الأيامُ والدَهرُ حاسِدٌ ولا نَشْكُرُ الخطيَّ واللهُ حارِسُ

وَحَسبُ الفَتَى مَنْ دهرُهُ طيبُ مَحتَدٍ وإحرازُ آدابٍ وخلٌ مُجانِسُ. [٨]

نلحظ أنّ نفسَ شاعرنا، تجسّدت في ثلاثةِ أمورٍ هي: طيبِ المحتدّ، وإحرازِ الآداب، والخلِّ المُجانِسِ، نقف عند كرم المحتد، وفخر الشاعر بكونهِ من صناديدِ هاشمٍ، أي إنّه من حسبٍ عربيٍّ أصيلٍ، وشاعرٍ يفتخرُ بعروبته وحُبّهِ للعرب في العصرِ العُثمانيّ، أنما يعطينا أبلغَ الدلالةِ على ما في نفسه من اعتدادٍ بطيب النجادِ العربيّ، ايضًا نُلاحظ أنّ الحضور مثل سلطة الذات المندمجة بالقبيلة، وترسيخ الحضور الذاتيّ/ القَبَليّ، بمفهومٍ واحدٍ، أي الذات الجماعيّة.

يحاول أن يُظهر سموَّ نفسهِ وأسرتِهِ، فيؤكّد على ندمائهِم ومجالسهم التي هي السماك والثريّا، كناية عن علوّ المنزلةِ التي هم عليها.

يقول:

بني عمنا نحن السَرَاةُ إذا مشوا يشمّوا إلى العلياء والدهر ناكِسُ

بني عمنا نحن الأولى يُهْتَدي بهم ضليلُ القَطا في القفر والليل دامِسُ

بنــي عمــنا نحن الأولى قد تعطّرت بذكــرهم فــي الخافقــين المجالسُ
بنــي عمنا صَبْراً على الدهر فالذي أراه بــأن الــدهر للحــر ضــارسُ
فمــا نحــن ممن عزّ إذ هو موسرٌ وهــان علــى الأيــام إذ هـو بائسُ
ومــا نحــن إلاّ مــن صناديد هاشم لنــا شَمَــمٌ تــزدانُ منــه المعاطِسُ.[٩]

للمُوسيقى الداخليّة أثرٌ في تنسيق نبراتِ البيت، وشدّ المتلقّي مع حالة الشاعر النفسيّة، والتوائم مع تجربته النفسيّة، فنشعر بوجودها بوساطة ما تحرّكه فينا مِن مشاعرَ وأحاسيس، والتكرار احد وجوهها، إذ إنّه ((خاصّية أسلوبيّة، يعمل إلى جانب الوزن والقافية، يمنح النصّ الشعريّ توازُنًا خاصًّا، وإعطائه إيقاعًا متميّزًا)). [١٠]

والتكرار ظاهرة لافتة في شعر الحُسينيّ، ادّت اثرًا أساسيًا، وبالغ الأهمّية على المستوى الموسيقي والدلاليّ، فقد كرّر الحُسيني (بني عمّنا) أربعَ مرّاتٍ، وهذا التكرار ليس عملًا عشوائيًا، إنّه وثيق الاتّصال بالمعنى الذي يريده الشاعر؛ إذ يؤكّد على ذاته، أنّها جزء من أبناء عمّه الذين يفتخر بهم، ويؤكّد مكانتهم، فقد عمد إلى التكرار لبيان مكانتهم، كذلك زيادة في معنى الفخر، وتأكيدًا عليه (نحنُ الأولى، نحن الراسة، ما نحنُ ممّن عزّ وهو موسر، ...)، ثمّ ينتقل من أسلوب التقرير، إلى أسلوب الأمر (بني عمنا صبرا)، فبعد أن بيّن مكانتهم، وعلوّ شأنهم، أخذ موقف الواعظ، فالصبر على الشدائد من صفات المسلم الورع، فها هو يدعوهم إلى الصبر على صروف الدهر؛ لأنّ المؤمن مُبتلى، والدهر لا يبقى على حال، فعلى الرغم من أنّ الهموم تنزل بهم من كلّ حدبٍ وصوب، إلّا أنّ قلبهم لا يتأثّر، إنّما هو متجلّد صابر؛ لأنّه يرى أنّهم يملكون نفسًا ونسبًا يترفّع بهم عن الدنايا من الأمور.

الفخر بذاته وشاعريته:

الباعث الآخر هو فخره بنفسه وشعره، فقد تميّز هذا العصر، والعصر الوسيط ـ بشكلٍ عام ـ بخصّيصة اختلفت عنه في العصور السالفة، ألا وهي انحسار الفخر القبلي، والميل إلى تمجيد الذات وتعظيمها؛ بسبب الأوضاع الاجتماعيّة والفكريّة التي سادت العصر، وتداخل الفئات غير العربيّة في المجتمع، وغيرها من العوامل التي أدّت إلى البرود في العاطفة نحو القبيلة، كمان أنّ للتمدّن أثرٌ كبيرٌ في استقلال الفرد وعدم تبعيّته، فكان هذا الفخر قد تلوّن بنفسيّة الشعراء، وبطبيعة انتمائهم القبلي، وبرؤيتهم تجاه موضوعة الفخر، والتأثّر بالظروف

والمواقف التي يتعرّضون له، وهي ـ بلا شكّ ـ تشكّل المحفّز الطبيعي لإنشاد الشعر، فمعاني الفخر اختلفت، فمنهم من افتخر بالشجاعة، والنخوة، وعراقة الأصل، ومنهم من افتخر بقوّة الإيمان، والعفّة، والنبوغ، والعلم، ومنهم من افتخر بالشاعريّة، وغيرها.[١١]

ولكلّ انسان خصوصيّات، وأخصّ الخصوصيّات ما يتّصل بذات الانسان بصورة مباشر، فأهل الإنسان يخصّونه، لكنّ ذاته هي قمّة الخصوصيّات، وبما إنّ الشعر هو ديوان العرب، وأنّ الرسول (ﷺ) يقول: ((**إنّ من الشعرِ حِكمًا، وإنّ من البيانِ سِحرًا**))[١٢]، وبما أنّ الشعر يحتلّ هذه المكانة المرموقة في حياة العرب، وكأيّ شيءٍ مهمٍّ يفتخرُ العربُ به لأهمّيته التي يحتلّها عندهم، نجد أنّ الشعراء يفتخرون بشعرهم وشاعريّتهم.

فلقد مثّلت شاعريّة الحُسيني دورًا كبيرًا في فخره، فقد كان معجبًا بشعره كلّ الإعجاب، على سنّة الشعراء المتقدّمين، وما أكثر ما وصف شعره، وفخر به وتغنّى، سواء بوساطة وصف قصيدته، أو وصف شاعريّته، وكونه شاعرًا مبرّزًا في القول.

قال:

فَهَاكَ بِهَا نبعَةً للقَرِيْضِ   نمتْهَا لـوَاقِـحُ أفكــارِهِ

تَخيّرْتُها مِنْ بَدِيْعِ الكَلام   بِعَـوْنِ النِظَـامِ وأبـكَـارِهِ

تَـدُلُّ بِجِـدّةِ هذا الزَمان   وَتَـزْهُو بِتنْمِـيْقِ أخبَارِهِ[١٣]

نرى الشاعر يفتخر بشعره، وقصائده، وذكر موهبته، فقد وصف قصيدته بانّها نبعة للقريض، واختارها من لواقح أفكاره، كناية عن علوّ منزلتها، وتقدّمها على مثيلاتها الأخريات، فقد كان شاعرنا ممّن يتجرّأ ويفتخر بنفسه، وبموهبته أمام ممدوحه، من خلال القصيدة التي يلقيها بين يديه.

وله أيضًا:

فَإليْـكَ الغَــداةَ مَنّــيَ رَوْدًا   بنت فِكرٍ فَوقَ الرداحِ الكِعَابِ

قَدْ تحلّت من بَعْدِ أوصَافِكَ الغُرّ   بِعِـقْـدٍ مُنَـضّـدِ الاقْتِضَـابِ[١٤]

يشّبه قصيدته بـ (الرود)، وهي الشابّة الناعمة، السريعة الشباب، بنت الفكر التي نالها التجديد، والتنقيح، والأصالة، ويُريد بـ (الرداح) المرأة التامّة الخلق، ثقيلة الأوراك.

وقال:

إلـــيك نـزعــة آداب يَــرِنُّ بهـــا طـــيرُ الفصاحـــة إيناساً وتطريبـا
ففـــاز سمعـك مئناس القريض بها فلـيس يألـــوك إبـــداعاً وتهذيبـا
فحيـــث ما جِلـْتَ تلقى روضـةً أَنفاً منهـا ومسكاً على الأرجـاءِ منهوبا
ومترفـا لـــم يـــزل بالـــدلِّ منتطـقاً بالظـرف متشحاً بالحسن معصوبا
من حيث لا روضة عند العيان ترى فيهـــا ولا مُسْمِـــعاً يشدو ولا كـوبا
وإنـمـــا هـــو تمويـــهٌ علـــى نَسَـقٍ تخالـــه شـــاربـــاً للـــذهن مشروبـا[١٥]

جعل للفصاحة طيرًا يطربُ على قصائده وأشعاره، فحيثما تجوّلت بها ترى الابداع الذي ليس له نظير، كالمِسك؛ إذ شبّهها بالمسك الذي يملأ المكان حين انطلاقها.

إلى أن يصل في وصفه لقصيدته بقوله:

إليـكِ يا مَـوئـلَ الآدابِ غانِيةً تهدِي ثناءً كأنفاس الرُبى طيبًا.[١٦]

فيشبّهها بالغانية التي تفوح عطرًا، كأنفاس الرُبى لطيبتها وجمالها.

فمعاني الفخر تنساب انسيابًا، لتمثّل أجملَ درجاتِ الفخر بالشاعريّة، مع ما انتظم فيها من تشبيهات مشرقة، ووصف بصورة مبتهجة ورائعة، صقلتها ثقافة عميقة ((إذ يعطي الشاعر لشعره بُعدًا متميّزًا، يمثّل جزءً من نفسيّته في تقويمه لعمله، ونقده له)).[١٧]

وله قائلًا:

مَهْ يـا رَبيعُ فـإنَّ صَوبَ قَصائِدي صوبُ الحِجَى، وحمامُها إفصاحِي
قامـتْ بِحُسْـنِ صِفاتِـهِ وَتَرَعْرَعَتْ وَكـــذَا الجُسُـومُ تقـومُ بالأرواحِ[١٨]

لقد كنّا ننتظر من الشاعر ـ وهو في العصر العثماني ـ مزيدًا من التعقيد، والتصنّع، والإغراب، لكنّنا وجدنا على العكس من هذا؛ إذ نراهُ يُحجم عن التعقيد والتصنّع، فيختار اختيارًا مطبوعًا، أو متعمّدًا الألفاظ الموحية، ذات الجرس الشعريّ الرنّان، ممّا انسجم وقعه، وتألّفت حروفه، ورقّ نسجه، سعيًا وراء الفصاحة التي قصدها لذاتها؛ إذ يرى أنّ قصائده ساحرة، حتّى أنّها لتفوقُ الربيعَ سِحرًا، وصوّبها صوبَ حِجاه، وحماها سجعه المفصح، وهذا

يعني أنّه يعرّض بالرقّة المتناهية في شعره، والموسيقى التي تنساب من خلال ألفاظه وتراكيبه، فشاعرنا لا يكتفي بالظاهر من الأمور بل الغور في أعماق الذات، ويستخدم الشاعر (قصائدي)،ف (الياء) تعود إلى ذاته المتفوّقة والمتميّزة، ثم يستعمل اسم فعل الأمر (مه)، وكأنّما يتخيّل للقارئ عند الوقوف عندها، أنّ الشاعر ممسك بيده عصا يدقّ بها على الأرض بعنف، عند بداية البيت؛ إذ يرى ذاته فريدة ومتميّزة في مملكة الشعر، فلا يرى له مثيل، كذلك هو الحال في قوله:

فَقَالَ اقتَرِحْ صَوْتًا أرجعُ شـدوَهُ فَإنّـي مَنْطِيْـقٌ بِمـا أنا مَانِحُ

فقُلتُ: مه، لم تدري أنّـي مبرّزٌ علَى كُلِّ غرّيدٍ بِمَا أنا صَـادِحُ.[١٩]

وتفرّده في الساحة الشعريّة، كان له دورٌ كبيرٌ في إضفاء المُبالغة والغُلوّ قليلًا، أو تعاظم الذات على نحوٍ مُبالغٍ فيه أحيانًا، في وصف قصائده وشاعريّته.

وله:

وَإلَيـكِ وافـدَةُ الثنـاءِ عَرُوبـةٌ بِكرٌ تَهَادَى مِنْ عُيونِ قَصَائِدِي[٢٠]

يُشبّه قصيدته بـ (البِكر)، التي لم يتقدّمها مثلُها، فضلًا عن اللفظة القويّة التي لم تمتزج باللغات الأخرى، ويستعمل لفظة (عروبة)؛ أي: الأصيلة التي لازالت تحتفظ بعروبتها.

وقوله:

مَـوْلايَ هَـاكَ خَـرِيْدَةٌ مَنْهوكَةً الألحاظِ نَهْدًا

غَـرَّاءَ قَـدْ ألبَستَـهَا وَشْيًا بِمَدْحِكَ مُستَجِدًّا[٢١]

وله:

إليكَهَا مِـنْ بَنـاتِ الفِـكرِ غَانيَةً عَذْرَاءَ تَزْهُو بِحُسْنِ الدَلِّ والحَـوَر

تَزْدَانُ مِنْكَ بِأَوْصَافٍ نسَقْنَ عَلَى لبّاتِـها من حُـلاهَا أنفسُ الدُرَر[٢٢]

قد نظم الشعر، وتمتّع بهذه الموهبة منذ صِباه، وقد افتخر به كثيرًا، فما قوله: (عذراء)، و(بِكر)، و(ابنة فكر)، إلّا لأنّه يرى نفسه بأنّه مَلَكَ زِمامَ الشعر.

فحقّه أن يفخرَ بقصائده؛ لأنّ سِمة الإبداع ليست مُتاحة لجميع الناس، ففخره بشعرهِ ما هو إلّا فخرًا بِذاته؛ لأنّ ذاته هي التي تصنع الإبداع، فإبداعه هو نفسُه، ونفسه هي موضوع شعره، ولقد كان لثقافته دورٌ كبيرٌ في هذا المضمار؛ إذ كان هاضِمًا للتراث الأدبيّ القديم.

وقال:

وَإليْكَـهَا عَـذرَاءُ حُـقَّ لِمِثْلِهـا فِي مِثْلِ ما نَهَضَت بِهِ أنْ يُعذَرَا

فَصـلٌ يُقصـرُ عنـهُ كُـلُّ مُـفوّهٍ وصفًا، وخُلقًا كالنسيمِ إذا سَـرَى[٢٣]

نُلاحظ أنّه كرّرَ لفظةَ (عذراء) في القصيدتين، للتأكيد على انّه لم يسبِقْ لأحدٍ انْ قال مِثلَها، حيث وصفها بـ (العذراء) التي يقصر على ايّ شاعرٍ أن يأتي بمثلها، وشبّهها بـ (النسيم) العذب إذا سرى، فوصفها بـ (العذراء) كناية عن قوّة شاعريّته، وتمكّنه من مقوّمات شعره، فالرقّة والسهولة هي ما يُطالِعُنا من سماتٍ فنّية في قصائده، فهي كـ (النسيم)، كما وصفها.

وقال:

إليكَ بِهَـا مِـنْ خـدر فـكرٍ مكفَّلٍ بِروضِ جِيادِ القولِ وهيَ شَوامِسُ

عَـرُوبـةُ حـيٍّ كالقَنـاةِ زَفَفْتُها إليـكَ كَـمَا زفّـتْ لِكُفءٍ عَرائِسُ[٢٤]

شبّهها بـ (العَروبة)، الضاحكة المُتحبّبة من النساء، و(الشوامس)، الفرس الذي لا يُمكن لأحدٍ من رُكوبهِ أو اسراجه، كناية عن تألّقها بين مثيلاتها.

وقال:

إليـكَ يـا رَبُّ الفَصَاحةِ غادَةً قَـدْ أخْجَـلَتْ بِجَمالِـهَا بِلقيْسا

سَبَقَتْ إليكَ وَقَد أتحْتَ لِمثْلِها مـن لفظِـكَ الدّريِّ مغناطيسا[٢٥]

وصفها بـ (الغادة) كناية عن جمالها ونعومتها، حتّى أنّها لتفوق بلقيس (ملكة سبأ) بجمالها.

وقال:

نَفَحـاتُ أُنْـسٍ أم شَـذا ألطافِ أمْ ذي خَـلائِق روضـةٍ مئنافِ

أَمْ تلكَ وافدةُ الودادِ جَلَتْ على يدِ مــن نودّ رغـيبة الإتحـافِ

كَلِـمٌ وأسجــاعٌ تراصــفَ دُرُّها وبدائِــعٌ أعيَتْ مَدى الأوصاف

فِــقَر تلاحَــم نسجــها وبدائِعٌ أوفت محاسنها على الأوصاف[٢٦]

فالاستفهام ـ هنا ـ كشفَ عن صفاتِ قصيدته التي يفتخر بها.

وقال:

وَهــاتِهــا بِنــتُ فِكرٍ أُعـيـذهُ مـــن كَــلالِ

جَاءتْ بتأريـخِ حسنٍ فِي ضمنِ بيتِ جَمالِ[٢٧]

قد احسنَ الشاعر عرضَ فكرته بوساطة قصيدةٍ ارتجلها أيّام الربيع، وقد أشار فيها إلى الجمع بين أصالة الطبع في ارتجاله البديهة، وأحكام النسج:

فَلَعَمْرِي أشهَى القريـضُ إلــى النفْـسِ وَلــوعٌ بذكــرِ عيــشٍ مِثالِــه

ولعــمّري إنّـــي المُبــرّز فــي القَولِ إذا مــا عَـــلَا منــاطُ مَنالــِه

وإلـــيَّ الأســجــــاعُ ثــمّ القَوافِي وِافتــراعُ الأفــكــارِ يــومَ نِضَالِــه

وإلـــى فِكــرتي التبــدّه[٢٨] والتمليط في الشعرِ مع صحيحِ ارتِجالِه

أُحكــمُ النســـجَ حيــن انتخــبُ الدرَّ ابتكـــارًا بصيــــده واعتقــالــِه [٢٩]

يعترف الشاعر بكلّ صراحة انّه يُحكم النسج، وإحكام النسج سمة التصنّع في هذا العصر، وهي أصيلة وقديمة في أدبنا، وإنّه على الرغم من ذلك يجمع بين جمال الطبع ورونق التطبّع، بين حسن الصنعة وسحر التصنّع، وهذا الجمع في نظره لا يغضّ من قيمة شعره؛ لأنّه في الواقع ينسجم مع المفاهيم النقديّة التي تجعله يلتزمها كلّ الالتزام، فيبتدأ أبياته بالقسم بـ (لعمر) مضافة إلى ياء المتكلّم لاستعظامه لذاته الشاعرة والفخر بها، فجاء القسم لاستعظامه الامر حيث المكانة الرفيعة والحظوة الكبيرة، فهو مدرك تمامًا انّه المبرّز على غيره، ففصاحته ظاهرة بوساطة شعره بشكلٍ واضح، فنجد أنّ معاني الفخر تدور حول الفخر بقصائده وفصاحته، فليس من المنطق أن يكون من هكذا نسب، وليس فصيحًا، وكذلك ليس من المعقول أن يكون شاعرًا وليس فصيحًا، فالفصاحة والبيان من صفات الشاعر المفكّر

والاديب والبليغ الذي لا يُجارى [٣٠] ؛إذ ينسب الأسجاع والقوافي له، فقصائده رائعة، والمعاني التي تطرّق إليها معانٍ شريفة، بعيدة عن الكلام الحوشي والهجاء، فسرعان ما تختلب السمع، وتجذب ذوي الالباب.

قال:

في قَرِيْضٍ أضاعَ مَكنون لُبّي بينَ ماءِ الحِجى ودُرَّ المَقـالِ[٣١]

عمد شاعرنا الى المجاز؛ إذ اسند الماء للحجى؛ أي: العقل، فـ (ماء الحجى)، كناية عن صفوة قصائده، وأرفعها منزلةً، فهي كالدرر، فالقصيدة المنظومة عنده تشخيصٌ طبيعيّ، وتمثيلٌ حيّ، يُضفي عليها انسانيّة الحياة نفسها، وشاعرنا لم يكن ليقتصر على التشخيص في نعته الذي أضفى على قصائده جمال الحياة، إنّما نراه يتخيّر لها الصفات اللائطة بالنفس الإنسانيّة، والعالقة بالوجدان الحيّ، والضمير اليقظ.

وله:

أيّ شعرٍ لـكَ اعتصـرتَ قَوافـ يـه من السِحـرِ هيّـج البـلبـالا
وسُـلافٍ متـى أردتُ التـداوي مـن خُمـاري شـربتِها جريـالا
ومـنَ الخمـرِ مـا يكـونُ مُباحًا ومِـنَ السِحـرِ مـا يكـونُ حلالًا
ومِـنَ النظـمِ مـا يُصـاغُ عُقودًا ومـنَ النَشـرِ مـا يسيـلُ زُلالا
نفثـاتٌ لـو شبّهوا سحرَ هارو ت بـهـا لـم يكُـن عليهِم مـحالا
هيَ فعلُ العيونِ في مُهجةِ الصبِّ وظُـل الطُـلا وبُلـّة الغـزّالا[٣٢]

قد اعتصر قوافيه من السحر، ليهيج الالباب، وهي صورة مجازيّة جميلة، فيشّبه شعره بأفضل أنواع الخمر وأجودها، وهو السُلاف، فمتى ما أراد أحدٌ ان يتداوى يشربه، فيراهُ كالخمرِ المُباح، وكالسحر الحلال، فهو من النظم الذي يُصاغُ كالعقود، ثمّ يعمد إلى وصفها بالنفثات التي لو شبهوا سحر هاروت بها، لكان غير مُحال، لجمالها وتأثيرها القويّ، فلقد ((وصف العربُ كلَّ مؤثّرٍ في مشاعرهم تأثير إعجابٍ بانّه (سحر هاروت)، وتشبيه قوّة التأثير في

المشاعر بالسحر، أحد مظاهر البلاغة العربيّة، التي تعتمد كثيرًا على المُبالغة))[٣٣]، ثمّ يشبّه تأثير قصيدته كتأثير نظرة العيون في قلب العاشق.

الفخر بالشباب الطموح:

المبعث الآخر من فخره هو الشباب الطموح، فالشباب عادةً ما يترافق بالعنف والأنفة، والقوّة والشجاعة، وشاعرنا كما تقدّم القول إنّه في ريعان شبابه، قال الشعر وهو ممتلئ بالحيويّة والشباب، فحتّى عند الغزل نراه يترفّع عن الذلّ لمحبوبه، فعلى الرغم من أنّ مشاعره قويّة، إلّا أنّها لا تتغلّب على ذاته المترفّعة، يقول:

غيـرِي يـلــذُّ لــهُ الهَـوى بِهوانِ وَسِـوايَ يرهَــبُ سطـوةَ الهِجرانِ
مـا كنــتُ أنْ استـام ريحَ تواصلٍ بمـذلّـَةٍ هـــي صفـــةُ الخسـرانِ
ومــن الـــردى أنْ أرتـدي بمذلةٍ وخلائـقــي تعــلو علـــى كيــوانِ
أيساقُ لي كأس الصدود فاختشي لمظنـــهٍ فــي نْــيلِ بيــضِ أماني
والــذّ مـــا ألفـــاه أن أَكـلِ المنى لخلائـــقِي فتــعافهـا مـــن جاني
وأخـــاف هجـــراً والعَفــافُ ذخيرةٌ أغنـــى بهـــا عـــن فاتر الأجفانِ
وعـــلامَ أجـزِعُ والشهامـةُ شيمتي وابـــن الحســـام أميرُ ذا الميـدانِ[٣٤]

يرى أنّ طبيعته وخليقته المترفّعة، تعلو حتّى على الكواكب، فمن الردى أن يقبل بالمذلّة؛ لأنّها صفة الخسران، فهو يخاف الهجر، لكن العفاف له ذخيرة في ذاته، تأبى ان تتنازل، مهما كانت قوّة مشاعره، فعفّته وكرامته تغنيه عن محبوبته التي كنّاها بـ (فاترة الاجفان).

إنّها حقًا تمثّل إباء الشاعر وكبريائه، حتّى في الحب، فنحن على بيّنة ومعرفةٍ حول مذلّة الشعراء في غزليّاتهم في الأدب المملوكي والعثماني، لكن الحُسيني يأبى أن يذلّ نفسه حتّى من أجل الحبيب؛ لأنّه كان معتدًا بجمال ذاته وترفّعها، ونبل محتده وأصله.

كذلك تتّضح ذاته المفتخرة من خلال حِكمهِ ومواعظه التي يقدّمها بصفته الناصح والمثقّف الحكيم، فالمُراد بالحكمة هي النظرات الصائبة في الكون، والحياة، والناس، والدين،

والاخلاق، وغيرها، وتكوين عادة متأثّرة بانطباعات الإنسان، بحيث يكوّن لنفسهِ فلسفة خاصّة به؛ إذ يسوق شاعرنا حِكمهُ بصورة تقريريّة، فيها من القوّة والنصح ما يعتمد على حقائق الحياة الثابتة في طبائع الناس، ومقرّرات الدين والأخلاق. [٣٥]

قال:

أكـتـب محـاسـن ما تــرى واحفظ محاسن ما كتبتَه

وأدرْ علــى الأسـمــاع إن حاضرت أحسنَ ما حفظتَــه[٣٦]

وقال:

لا تعـبـأنَّ بــذي مَـكــرٍ تحــاذِرُهُ مَـا راحَ يضــرِبُ أخماساً لأسداسِ

دعــه يحــاول أن تنــدى أراكـته بِصَيِّبِ المكرِ ما في ذاك من باسِ

فالمــكر يرجــعه فيها على عَقِبٍ حتى تجفَّ ويعرى عِطفها الكاسي

والمرء مهما يكنْ في السرِّ مرتقباً يكُنْ مـن اللّهِ في حِرْزٍ مـن النّاسِ[٣٧]

بدأ شاعرنا نصحه باستخدام أسلوب النهي، ثمّ الأمر، ثمّ أخذ يوضّح بأسلوب التقرير أهمّية هذه النصيحة، فيدعو المقابل ألّا يهتم، ولا يخاف من ذي المكر فإنّه مهما فعل، فدعهُ حتى وإنْ تندى أراكته، أي فرح في بدء الأمر بالمكر، فيرى أنّ هذا المكر سيعود على صاحبه في نهاية الأمر، فالنهيُ والأمر أفاد معنى الحثّ والنصح.

وقال:

كَمْ ضمّت التَرباءُ خَلقًا قَبلَنا مِـنْ آخرٍ يَقْفُو سَبيـلَ الأوّلِ

حتّـى كأنّ أديمها ممّا حَوَتْ حبـاتُ أفئـدةِ المُلـوكِ العُدّلِ[٣٨]

لقد كان الشعر، ولا يزال مدارًا للتأمّل في الحياةِ والكون، مع التماس مواطن العبر، من خلال توظيف هذه التجارب، في صورٍ تأخذ مجرى الأمثال والمواعظ [٣٩] ، وينظر شاعرنا إلى طبيعة الحياة ـ رغم صغرِ سنّه ـ التي ألفها وخبِرها، واستخلص منها قيمه وأفكاره؛ إذ يصوّر لنا فلسفة الحياة من خلال مشهدٍ تتبعُ فيه الموعظة والحكمة، وكأنّه نظر إلى قول فيلسوف الشعراء، وشاعر الفلاسفة أبي العلاء المعرّي، الذي يقول:

خَفِّفْ الوَطءَ، مَا أظنُّ أديمَ الـ أرضِ إلّا مــن هَـذِهِ الأجسَادِ[٤٠]

فيرى أنّ الناس يفنون هم وأموالهم واحدًا تِلوَ الآخر، وهو يرى آثار الماضين في كلِّ مكان، كأنّها حبّات أفئدة الملوك العدّلِ، الاستفهام بـ (كم) أفاد معنى التكثير، والاستفهام هنا يكون أكثر استيعَابًا للمشاعر والانفعالات، ولا سيّما أنّ السياق هو سياق الحكمة، يريد حتّى أنّ الأرض من كثرة ما ضمّت، تكاد لا تعدُّ ولا تحصى.

وقال:

أقصـرِ بعيشِكَ واعتقِلها حِكمـةً فالمـرءُ بالخُلـصـاءِ والخـلّانِ

لا تَجحدَنَّ على الصديقِ حُقوقه هـوَ أوّلٌ وهـي المحـلُّ الثاني[٤١]

كذلك تظهر ذاته المفتخرة من خلالِ تتبّع ثقافته، فالإبداع وحده لا يكفي لتمييز ذاته، فللمعرفةِ والثقافة دور كبيرٌ، فهي الوعاء الذي يصطبغ به الإبداع، فقد كان شاعرنَا متثّقفًا هاضمًا تراث عصره، فيتّضح لنا من خلال نظريّته الشعريّة، إن مفهوم الشعر عنده يعتمد على القولِ: أن الشعرَ ضربٌ من التصوير، أي: هو فنٌّ من الفنون، يورد الشاعر فيه مُختار المعاني المبتكرة، ويوشّحهُ بالأسلوب العون المدمث:

إليـكَ نـزعـةَ آدابٍ يـرنُّ بهـا طيـرُ الفصـاحةِ إيـناسًا وتطريبًا

والشعرُ ضربٌ من التصويرِ قد سَلَكَتْ فيـه القرائـحُ تـدريجًـا وتدريـبًا[٤٢]

ويُعرب في مكانٍ آخر عن هذه المفاهيم قائلًا:

الشِعرُ ضَربٌ مِنَ التَصويرِ قَدْ كَشَفَتْ مِنـهُ القـرَائِحُ عَنْ شتّى مـنَ الصُورِ

فاعـمـدِ إلـى قالـبٍ عـونٍ تدّمثهُ وأفـرِغ بـهِ أيّ معنـًى شئتَ مُبتَكَر.[٤٣]

فالاهتمام بالقالب العون، وتدميث الاسلوب ضروريّان جدًّا لإبراز المعنى المُبتكر، فيبدو في وشاح من التصوير الفنّي، وهو لأجل ذلك يتخيّر أجمل الكلام، ويضمّنه أبكاره وعونه في نظامه البديع الذي يدلّ بجدّة زمانه.

امّا سرّ الإفصاح لديه، فهو أنّه كان يؤمن بإئتلاف المبنى والمعنى معًا، بالإضافة إلى إحكام النسج، وقد تقدّم قوله (وكذا الجُسوم تقومُ بالأرواحِ)، والمُلاحظ أنّه كان يتوخّى من

ألفاظه المُختارة تآلف الحروف، وانسجام جرسها المُوحي، بالإضافة إلى ائتلاف الكلمات نفسها في تركيب الجملة الشعريّة.[٤٤]

الخاتمة

في نهاية بحثنا هذا توقفنا عند عدد من النتائج، وهي:

١. للأرومة الطيبة التي يرجع لها، والبيت الكريم الذي ولد فيه، ومنزلته في عصره، وصفاته ونبله، كانت من الأمور المهمة التي فجّرت في ذاته ينابيع الفخر، في المكانة والنسب، والشاعرية، التي لا تنبثق إلّا عن فصيحٍ ذي لُبٍّ وبيان.

٢. مثّلت شاعريته دوراً مهماً في اعجابه بذاته، والافتخار بنبوغه، وتميّزه بين أقرانه، وكثيراً ما افتخر وتغنّى بقصائده وموهبته التي اختار لها أجمل الأوصاف.

٣. إنّ اعتزازه بقصائده وبشاعريته ربما جاء كرد فعل لأحداث عصره التي حفزته على الفخر والاعتزاز بشعره، منه كثرة الشعراء، واغراقهم في الصنعة والتكلف.

٤. إنّ ذاته العربية الأصيلة، ومكانته ومكانة أسرته في المجتمع، كان له دور في الترفع عن مدح السلاطين العثمانيين، فلم يتملق بشعره لهم ولم يتكسّب بشعره، فكان شعره من أصدق الأشعار وأعذبها وأسرعها قبولاً لمسامع القراء.

٥. على الرغم من تمكّنه من اللغة التركية ـ التي كانت اللغة الرسمية للدولة العثمانية ـ إلّا أنها لم تجد مكاناً في شعره؛ لاعتزازه بعروبته والافتخار بها.

The Image of the Proud Self for the Poet Ibn Al-Naqeeb Al-Husseini (d. 1081 (AH

University of Diyala
College of Education for Humanities
An Extracted Research Paper from MA Thesis
Rua'a Hussain Ahmad Abdoul
(.Assist. Prof. Louay Saihoud Al-Tamimi (Ph.D

Keyword: image, self, proud

Abstract

This research attempts to identify the proud self -image in the poetry of Ibn Al-Naqeeb Al-Husseini by tracing his texts and probing the psychological motives that were a cause for his pride, including his honor of lineage, his poetic brilliance, his distinction and wisdom, which were indications of superiority that he transmits to the other , expressing an exaggerated self he has.

الهوامش:

[١] ينظر: الفخر والحماسة: حنّا الفاخوريّ، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٢م: ٩.

[٢] ينظر: صورة الذات والآخر في جمهرة أشعار العرب: فاطمة محمّد أحمد العذاري، (رسالة ماجستير)، جامعة الكوفة، ١٤٣٩هـ ـ ٢١٠١٨م: ٣٣.

[٣] ينظر: الشعر في المشرق العربي في العصر الوسيط: ٣٣٩.

[٤] الأوانس: جمعُ آنسة: من تؤنسكَ بطيبِ حديثها. المعجم الوسيط: ٢٩.

[٥] الغشمشم: قيلَ هو من يركب رأسه فلا يثنيه عن مراده شيء. المعجم الوسيط: ٦٥٣.

[٦] ديوانه: ١٧٠.

[٧] من شعريّة اللغة إلى شعريّة اللذات: د. أحمد حيزم، دار صامد، تونس، ط١، ٢٠١٠م: ١٤٦.

[٨] ديوانه: ١٧١.

[٩] ديوانه: ١٧١.

[١٠] جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٠م: ٢٣٩.

[١١] ينظر: الاتجاهات الشعريّة في بلاد الشام في العهد العثماني: د. محمد التونتجي، مطبعة اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، (د. ط)، ١٩٩٣م: ٥٨.

[١٢] مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل، شرح: محمد أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م: ١٠٦/٣.

[١٣] ديوانه: ١٤٨.

[١٤] المصدر نفسه: ٢٤.

[١٥] المصدر نفسه: ٣٤.

[١٦] المصدر نفسه: ٣٥.

[١٧] الفن ومذاهبه، بحث جمالي في الأنواع الأدبيّة والفنّية: د. ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٠م: ٣٧.

[١٨] ديوانه: ٦٧.

[١٩] المصدر نفسه: ٨٨.

[٢٠] المصدر نفسه: ٨٣.

[٢١] المصدر نفسه: ٨٨.

[٢٢] المصدر نفسه: ١٣٥.

[٢٣] المصدر نفسه: ١٤٥.

[٢٤] المصدر نفسه: ١٧٣.

[٢٥] المصدر نفسه: ١٧٦.

[٢٦] المصدر نفسه: ٢١٤.

[٢٧] المصدر نفسه: ٢٣٤.

[٢٨] التبدّه: الارتجال. المعجم الوسيط:٤٥.

[٢٩] الديوان: ٢٣٩.

[٣٠] ينظر: شعراء من الماضي: كامل العبد الله، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط١، ١٩٦٢م: ٧٨.

[٣١] الديوان: ٢٤١.

[٣٢] المصدر نفسه: ٢٩٩.

[٣٣] السحر في الشعر العربي القديم: (أطروحة دكتوراه): ندى بكري، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلّية اللغات، ٢٠١٥م: ٧٨.

[٣٤] ديوانه: ٢٧٤.

[٣٥] ينظر: حول الحكمة في الشعر العربيّ: عبد الله أحمد باقازي، نادي مكّة الثقافي الأدبي، الرياض، ط١، ١٩٩٣م: ٣٤.

[٣٦] ديوانه: ٥٩.

[٣٧] المصدر نفسه: ١٨٠.

[٣٨] المصدر نفسه: ٢٤٣.

[٣٩] ينظر: الحياة والموت في الشعر الجاهلي: د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، دار الحرية للطباعة، ط١، ١٩٧٧م: ٢٤٧.

[٤٠] ديوان سقط الزند: أبو العلاء المعريّ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (د. ط)، ١٩٥٧م: ٧.

[٤١] المصدر نفسه: ٢٧٦.

[٤٢] ديوانه: ٣٠-٣١.

[٤٣] المصدر نفسه: ١٦٧.

[٤٤] ينظر: تاريخ الأدب العربي العصر العثماني: ٣٣٧.

المصادر والمراجع:

- **الاتجاهات الشعريّة في بلاد الشام في العهد العثماني:** د. محمد التوتنجي، مطبعة اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، (د. ط)، ١٩٩٣م.
- **تاريخ الادب العربي، العصر العثماني:** عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط١، ١٩٨٩م.

- **جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب:** ماهر مهدي هلال، دار الرشيد للنشر، بغداد، ط١، ١٩٨٠م.
- **الحياة والموت في الشعر الجاهلي:** د. مصطفى عبد اللطيف جياووك، دار الحرية للطباعة، ط١، ١٩٧٧م.
- **ديوان ابن النقيب الحسيني:** تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ط١، ١٩٦٥م.
- **ديوان سقط الزند:** أبو العلاء المعريّ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (د. ط)، ١٩٥٧م.
- **السحر في الشعر العربي القديم: (أطروحة دكتوراه):** ندى بكري، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، كلّية اللغات، ٢٠١٥م.
- **الشعر في المشرق العربي في العصر الوسيط من سنة (٦٥٦ هـ ـ ١٢١٣هـ):** د. محمد شاكر الربيعي، مؤسسة دار الصادق الثقافية، دار الرضوان للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٢م.
- **الفخر والحماسة:** حنّا الفاخوريّ، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٩٢م.
- **الفن ومذاهبه، بحث جمالي في الأنواع الأدبيّة والفنّية:** د. ميشال عاصي، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٠م.
- **مسند الإمام أحمد:** أحمد بن حنبل، شرح: محمد أحمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- **من شعريّة اللغة إلى شعريّة اللذات:** د. أحمد حيزم، دار صامد، تونس، ط١، ٢٠١٠م.